السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ — ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٨ — ١٩٠٢ م

— ١ —

من بيت فى « حلب » يعتزّ بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه وماله ؛ فأسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الأشراف فى حلب ، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية، وأبوه أحدُ المدرسين فى الجامع الأموى بحلب والمدرسة الكواكبية فيها .

تعاون على تربيته بيتُه وما فى تقاليده من عزة و إباء وشمم وأَنفَة من الصغائر ؛ وخالة له تعهدته بعد وفاة والدته وهو صغير ؛ وكانت من نوادر النساء فى الشرق ، عُرِفت بالأدب والكياسة وكبر العقل . فطرته التى فُطر عليها ميلٌ إلى الحق ، وحب الخير ، والاستجابة للتربية الصالحة .

كل هذا جعل منه رجلا يستعصى على ناقد الأخلاق نقدُه . مؤدَّب اللسان فلا تُؤخَذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، حتى لو أُلقى عليه السلام لفكر فى الإجابة ؛ متزن فى حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ، ثم يصل ماانقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه؛ نزيه النفس لايخدعها مطمع ولا يغريها منصِب ؛ شجاع فيما يقول ويفعل ، مهما جرّت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ؛ وهو — مع أنفته وعزته وصَلَفه[1] على الكبراء — متواضع للبائسين والفقراء ، يقف دائماً بجانب الضعفاء ؛ يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ ، وحب الحق ونصرة المبدأ ، والتضحية للفضيلة .

---

(١) صلفه : زهوه وتكبره .

تعلم كما كان يتعلّم ناشئة زمانه الدينيون ؛ لغة عربية ودين فى مدرسة أسرته بحلب — « المدرسة الكواكبية » — وكانت مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يُقرأ من كتب ، وما يتبع من منهج ، ولكنه أكمل نفسه بقراءته بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، وأحضر له والده مَنْ علّمه الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعُنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية .

فلما أتم دراسته انغمس فى الحياة العملية ، وتنوّعت أعماله ، وتباينت اتجاهاته فمن محرر لجريدة رسمية ، إلى رئيس كتّاب المحكمة الشرعية ؛ إلى قاض شرعى فى بلدة من البلاد السورية ، إلى رئيس البلدية . ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشىء لنفسه جريدة فى « حلب » اسمها الشّهباء ، أو يشتغل بالأعمال التجارية ، أو يقوم بمشروعات عمرانية ؛ ومن كل ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة . وفى كل الأعمال الحكومية والحرة يصطدم بنظام الدولة ، وباستبداد الحكام ، وفساد رجال الإدارة ، فينازلهم وينازلونه ، ويحاربهم ويحاربونه ، وينتصر عليهم حيناً ، وينتصرون عليه حيناً ، وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة ، وسلاحهم دائماً الدسائس واتهامه بخروجه على النظام ، ودعوته للشّغب ، وما شاكل ذلك مما هو عادة الظالمين . وكانت البلاد التى يعيش فيها موبوءة بحكم « عبد الحميد » لا يستطيع أن يعيش فيها حُرّ صريح ، ولا ينجح فيها تاجر نزيه ، ولا موظّف جرىء مستقيم ؛ وهذا النوع من الحكم عدو كلّ كفاية ، وقاتل كل نبوغ !

ارتفع شأنه فى بلده ، فكان يقصده أصحاب الحاجات لقضائها ، والمشاكل لحلها ، ورجال الحكومة أنفسهم يستشيرونه فيما غمَض عليهم ؛ وهو فى كل ذلك جرىء فيما يقول ؛ لا يقرّ ظالماً على ظلمه ، ولا يسالم جائراً لمنصبه أو جاهه . من أجل هذا غاضَبَ « عارف باشا » والى « حلب » وأخذ يعدد سيئاته وينقم عليه

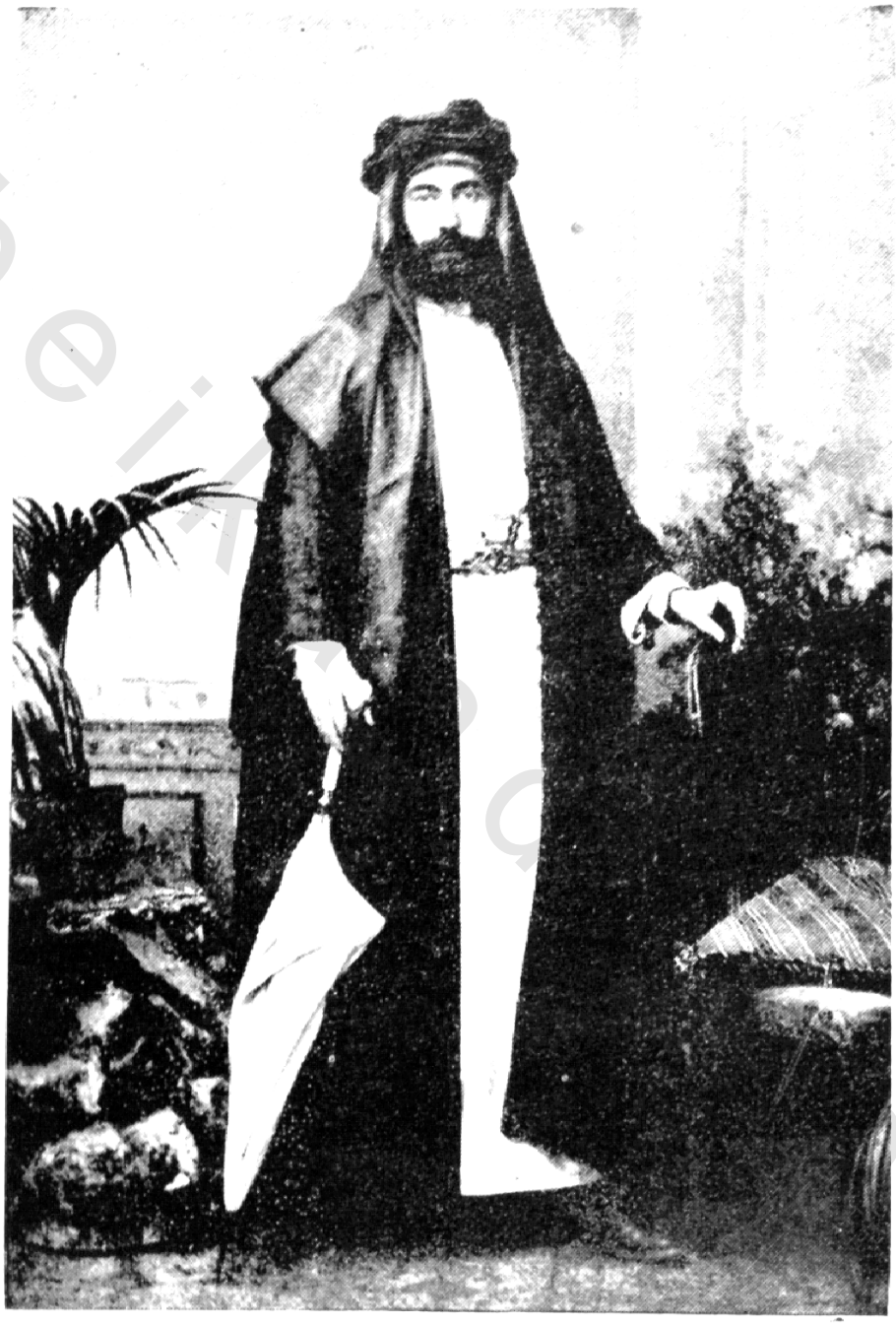

السيد عبد الرحمن الكواكبي فى لباسه البدوى

تصرفاته ، ويحرّض الناس على رَفْع صوتهم معه بالشكوى منه لرؤسائه فى الآستانة ، فانتقم « عارف باشا » لنفسه ، فزوّر على « الكواكبى » أوراقا ، واتهمه بأنه يسعَى لتسليم « حلب » لدولة أجنبية ، وحبسه وطلب محاكمته ؛ فبذل الكواكبى ورجاله جُهداً كبيراً ليحاكم فى ولاية غير ولاية « حلب » ؛ وحوكم فى بيروت فحُكم ببراءته، وظهرت خيانة الوالى ومكايدُه فعُزل .

وكان من أعداء « الكواكبى » أيضاً « أبو الهدى الصيادى » الذى سبق وصفه فى ترجمة « عبد الله نديم » لأن «الكواكبى» أبى الاعتراف بصحة نسبه . ولاعتداء « أبى الهدى » على بيتهم بأخذ نقابة الأشراف لنفسه منهم ، فكان « أبو الهدى » أيضاً يدُسّ له ، ويغرى ولاة الأمر به .

فكان من نتيجة محاكمته على التهمة التى اتهمه بها « عارف باشا » ، ومن معاكسة « أبى الهدى » وأعوانه له حتى فى تجارته ، أن خَسِر ألوف الجنيهات من ماله ، فاحتمل ذلك بنفس قوية لا تجزع ولا تتحول .

وأنصع صفحة فى تاريخ حياته قوة شعوره بفساد حال المسلمين ، وتخصيص جزء كبير من حياته فى تعرف أحوالهم فى جميع أقطار الأرض ، وتشخيص أمراضهم وتلمُّس العلاج لهم . فعكف على مطالعة تاريخهم فى ماضيهم وحاضرهم ، وما كتبه الكتاب المحدثون فى ذلك فى الكتب والمجلات والجرائد ، ودرس أحوال المسلمين فى المملكة العثمانية . ثم رِحْلته إلى كثير من بلاد المسلمين ؛ فساح فى سواحل إفْرِيقيَّةَ الشرقية ، وسواحل آسية الغربية ، ودخل بلاد العرب وجال فيها ، واجتمع برؤساء قبائلها ، ونزل بالهند وعرف حالها ، وفى كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية ، وحالتها الزراعية ، ونوع تُربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة . ونزل مصر وأقام بها ، وكان فى نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ، ولكنه عاجلته مَنِيَّته .

نشر نتيجة دراسته فى مقالات كتبت فى المجلات والجرائد ، ثم جمعت فى كتابين : اسم أحدهما « طبائع الاستبداد » ، والآخر « أمّ القرى » : الأول فى نَقْد الحكومات الإسلامية ، والثانى أغلبه فى نَقْد الشعوب الإسلامية .

لقد كان الحديث فى مثل هذه الموضوعات التى مسَّها « الكواكبى » فى «طبائع الاستبداد » و « أم القرى» من الموضوعات المحرَّمة ، لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتُفهم الشعوبَ حقوقَهم وواجباتهم ، وتَقِفُهم على مناحى الظلم والعدل، وتهيئهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت، والقيام بالواجبات إذا أهملت ، وهذا أبغض شىء لدى الحاكم المستبد / لذلك رأينا الشرق من بعدِ ابنِ خَلْدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحْه أىّ باحثٍ بعدَه ، وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة . والعلوم التى حوفظ عليها واستمرت دراستها ، هى علم النحو والصرف واللغة والفقه ، لأنها لا تمسّ الحاكم من قريب ولا بعيد ، ولا تُفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم . والأدب مدَّاح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلا وفسادهم صلاحا ، فإذا أعطاهم الحاكم قليلاً مما سلبه من أمتهم هللوا وكبروا ، وعجبوا من كرمه الحاتمى ، وسخائه الذى لا نظير له ، والمؤرخون لا يؤرخون إلا شخصه فى حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده ، أما الشعب فلا شىءَ إلا أن يكون مزرعة للحكام . وأحبّ علم إلى الحكام المستبدين وأدعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون إلى التسليم بالقضاء والقدر، ويستطيعون أن يولدوا المعانى من مثل « السلطان ظِلّ الله فى أرضه » . أما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خَلْدون بتاتاً .

كان هذا فى الشرق ، على حين أن الغربيين بدأوا بعد ابن خَلْدون يبحثون فى المجتمعات بحثاً واسعاً ، يتعرفون علل الجماعات وأمراضها وأنواع الحكومات

ومزايا كل شكل وعيوبه ، ويتحررون من القيود ، ولا يعبئون بالتضحيات فى سبيل الحريات ، ويبنى لاحقهم على ما وصل إليه سابقهم .

وبلغ الضيق فى الشرق منتهاه فى عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن شدة الضغط تولّد الانفجار ، والقسوة تفتّق الحيلة ، وتوالى الاضطهاد يولّد البغضاء ، فكثرت فى هذا العهد الجمعيات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمل لوضع نظام دستورى لا يكون فيه السلطان الحاكم بأمره ، وفرّ كثير من العثمانيين إلى أوربة يدرسون نظم الحكم الأوربى وما وصلت إليه أوربة من البحوث الاجتماعية ، وأخذوا يكتبون ذلك فى جرائدهم ومجلاتهم التى يحررونها خارجَ الحدود العثمانية ، ومنها تتسرب إلى البلاد نفسها . وأخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تُؤوى الأحرار ، وتؤيد القول فى نقد نظام الحكم ، وظهرت فى الجرائد والمجلات مقالات بالعربية فى تشريح أحوال الجماعات وأصول الحكومات ، وتُرجم إلى العربية « أصول النواميس والشرائع » لمنتسكيو / وبدأت موجات البحث الاجتماعى فى أوربة تصل إلى الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين فى أوربة .

فى هذا الوسط طلع الكواكبىّ ، وكان ظهوره بكتابيه جُرأة كبيرة . لقد استفاد مما نُقل عن الغرب ، ولم يكن يعرف لغة أوربية ، إنما يعرف العربية والتركية والفارسية ؛ فاستفاد مما نقل إليها ، ومما كان يُترجم له فى هذا الباب خاصةً . وقد ظهر أثر هذا الاقتباس فى كتابه « طبائع الاستبداد » . أما كتابه « أم القرى » فبحث مبتكر يدل على كبر عقله ، وقوة تفكيره ، وسعة اطلاعه ، وصدق غيرته على العالم الإسلامىّ .

أما كتاب « طبائع الاستبداد » ، فقد نشره — أولاً — مقالاتٍ فى بعض الصحف عندما كان فى مصر سنة ١٣١٨ هـ ، / ثم جمعها فى كتاب وقال فى أوله

« إنى نشرت فى بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ، ومنها ما اقتبسته ، غيرَ قاصدٍ بها ظالماً بعينه ، ولا حكومةً مخصصة ، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتِبون على الأغيار ، ولا على الأقدار؛ ثم أضفت إليها بعض زيادات ، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب » .

وقد اقتبس فيه كثيراً من أقوال «ألفِيرى» ، ولا أعرف كيف وصلت إليه ، وألفيرى "Alfieri Vittoria" ، كاتب إيطالى عاش من سنة ١٧٤٩ — ١٨٠٣ م ، من بيت نبيل ، وقد ساح فى أوربة نحو سبع سنوات ، ودرس كتب ڤولتير ورُوسُّو ومنتسكيو ، وتشبع بآرائهم الحرة وتعشّق الحرية وكره الاستبداد أشدّ الكره ، ووجّه أدبه للتغنى بالحرية ومناهضة الاستبداد ، يُنطق بذلك أبطال رواياته ، ويبثه فى كتاباته . ولكن الكواكبىّ هضمها وعدّلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية ، وزاد عليها من تجاربه وآرائه .

— ٢ —

وكتاب « طبائع الاستبداد » يدور حول تعريف الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب » . ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقةَ التصرف ، لا يقيدها قانون ولا إرادة أمة ، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى . والحكومات ميّالة بطبعها إلى الاستبداد ، لا يصدّها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها ، وإلا قوة الرأى العام وعظمة سلطانه .

والمستبدّ يتحكم فى شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه

لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى ، فيضع كَعْبَ رجله على أفواه الملايين من الناس ، يسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به .

والمستبد عدوّ الحق ، وعدوّ الحرية وقاتلها .

والمستبدّ يودّ أن تكون رعيته بقراً تُحلب ، وكلاباً تتذلل وتتملّق ؛ وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمةً له ، أو هى جاءت به ليخدُمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد ، تقول له لا أريد الشر ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ؛ فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويًّا لم يجرؤ على ظلمه .

وقد بحث بحثاً مستفيضاً فى علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم فى أن الاستبداد فى السياسة متولد من الاستبداد فى الدين أو مساير له . فكثير من الأديان تبثّ فى نفوس الناس الخشيةَ من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول ، وتهدّدهم بالعذاب بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص[1] ؛ ثم تفتح باباً للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأحبار والقُسس والمشايخ، بالذلة لهم ، والاعتراف أمامهم ، وطلب الغفران منهم . والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيسترهبون الناسَ بالتعالى والتعاظُم ، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال ، حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلّف لهم وتملقهم ! وعوامّ الناس يختلط عليهم فى أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزّهونهم عن سؤالهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقاً فى مراقبتهم على أعمالهم ، كما أنه ليس لهم حقّ فى مراقبة الله فيما يفعل ! ! ولهذا خلعوا على المستبد صفات الله كولىّ النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل القدر ، وما إلى ذلك ! وما من مستبدّ سياسىّ إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله أو تربطه برباط مع الله

(١) الفرائص : جمع فريصة ، وهى لحمة بين الجنب والكتف ترتعد عند الفزع .

ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله ! !

ولقد رأى « الكواكبي » أن الإسلام فى جوهره الأصيل لا ينطبق عليه هـذا القول ، فهو مبنىّ على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية ، فهو مؤسَّس على أصول ديمقراطية (أى المراعاة التامة للمصلحة العامة)، وعلى شورى أرستقراطية، أى شُورَى الخواصّ ، وهم أهل الحل والعقد. فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى بإماتة الاستبداد ، والتمسك بالعدل ، والخضوع لنظام الشورى، من مثل : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرُهُم شورى بينهم » حتى فى القصص، من مثل: « ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهَدُون » ومظهر هذا كان فى أيام النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدين . ثم لا يعرف الإسلام سلطة دينية ، ولا اعترافاً ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين . ولـكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعاً ، وتحول الحكم من نظام شورىّ إلى استبداد ، فصغُرت نفوس النـاس وخفت صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو المبدأ الذى به يراقَب أولو الأمر فى الأمة ؛ فصار أمر المسلمين إلى ما نرى .

ولم يتعرض « المؤلف » للرد على الشطر الأول ، وهو ما يوحيه تصوير الله بالقوة والعظمة والسيطرة من خضوع النفوس للمستبد . وعندى أن الإسلام بجعله « لا إله إلا الله » مِحْوَرَ الدين ، تتكرر فى كل أذان وفى كل مناسبة ، كان كفيلا أن يذكر النفوس دائما بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذِل لأحد سواه ، وأن هذه الـكلمة توحى بالضعف أمام الله والقوة أمام من سواه . ولـكن بتوالى القرون ، ودخول الدخيل من العقـائد ، أصبحت « لا إله إلا الله » عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا رُوح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة، وتبيح أن يشرك مع الله الحاكم المستبدّ والرئيس المستبدّ ، بل المـال والجاه والمنصب ،

فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله ؛ وفقد المدلول الحق للا إله إلا الله !!

* * *

ثم أبان أن الحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية فى الظلام ، لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه (وروى أن حاكما مستبدًّا شرقيًّا كان له مربٍّ سويسرى ، فقال له يوماً بعد أن تأمّر[١] : «ليتك تُعنَى بتربية الشعب وتعليمه ! » فقال الأمير : « كلا ! إنى إن علمته صَعُبَ علىّ حكمه » !) .

والحاكم المستبد لا يخشى علوم اللغة والأدب ، ولا علوم الدين المتعلقة بالمَعَادِ[٢] ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده فى استبداده ، بسدّ أفواههم بلُقَيْمات من فُتات مائدته ؛ إنما ترتعد فرائصه من الفلسفة العقلية ، ودراسة حقوق الأمم ، وعلوم السياسة والاجتماع ، والتاريخ المفصّل ، والقدرة على الخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التى تنير الدنيا وتثير النفوس على الظالم ، وتعرِّف الإنسان ما هو الإنسان ، وما هى حقوقه ، وكيف يطلبها ، وكيف ينالها ، وكيف يحفظها ؟ فإن المستبد سارق ، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة .

ولذلك يكون الحاكم المستبد وهؤلاء العلماء فى صراع دائم ؛ العلماء يحاولون الإنارة والمستبدّ يحاول إطفاءها ، وكلاهما يحاول كسْب عامة الشعب ، فالمستبد يخيفهم ليستسلموا ، وهؤلاء العلماء ينيرونهم ليقولوا ويفعلوا .

والحاكم المستبد تسرّه غفلة الشعب لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم : يغصِب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم ، ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة ، ويُسْرف فى أموالهم فيقولون إنه كريم ، ويقتلهم ولا

---

(١) تأمّر : تولى الحكم .

(٢) المعاد : عودة الحياة فى الدار الآخرة .

obeikandi.com

يمثّل بهم فيقولون إنه رحيم] وإن نقم عليه بعض الأباة [١] ، قاتلهم بهم كأنهم بُغاة [٢] ! ! .

[والحاكم المستبد يخاف رعيتَه كما تخافه رعيتُه ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم وهم يخافونه عن جهل] وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره ، ودرجة عدله بمقدار طمأنينته ، كما يستدلون على أصالة الاستبداد فى الأمة بترف الحكام ، وإمعانهم فى البذخ ، وكثرة الحجاب. ومن دلائل تغلغل الاستبداد فى الأمة استكناه لغتها ، فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع كاللغة الفارسية ، دلت على تاريخها القديم فى الاستبداد ، وإن قلت — كالعربية قبل امتزاجها بغيرها — دلت على الحرية .

[وعلى الجملة فأخوف مايخافه المستبد من العلم ، العلم الذى يعلّم أن الحرية أفضل من الحياة ، والشرفَ أعزّ من المنصب والمال ، والحقوقَ وكيف تُحفظ ، والظلم وكيف يُرفع ، والإنسانيةَ وقيمتها ، والعبوديةَ وضررها .

وقد كان « الكواكبى » فى كل هذا يقرأ نتاج القرائح التى كُتبت فى الاستبداد ، وينظر إلى الدولة العثمانية فى عهده ، ويستملى منها آراءه وأحكامه .

* * *

ثم عرض للاستبداد والمجد ، ويعنى بالمجد رغبةَ الإنسان أن تكون له منزلة حبّ واحترام فى قلوب الناس ، وهو مطلب طبيعىّ شريف ، ويبلغ عند بعض الأفراد درجةً تجعلهم يتساءلون أيّهما أقوى : الحرصُ على المجد أم الحرص على الحياة ؟ و « الكواكبى » من قَبيل من يرى الحرصَ على المجد أقوى وأوجب من الحرص على الحياة] ولذلك عاب على ابن خَلدون رأيه فى تقديم الحرص على الحياة

---

(١) الأباة : جمع أبىّ ، وهو من يأبى الظلم ويستنكره .

(٢) البغاة : جمع باغ ، وهو المعتدى والمنحرف عن الحق .

عندما نقد ابنُ خلدون الإمامَ الحسين بن علىّ وأمثاله ، وقال إنهم يعرّضون أنفسهم للموت بخروجهم فى فئة قليلة على الخليفة ذى السلطان والعدد والعُدد ، فيُلْقُون بأنفسهم إلى التَّهْلُكة . فقال « الكواكبى » : إنهم معذورون ، لأنهم يفضّلون الموت كراما على حياة الذل التى كان يحياها ابن خَلدون ، وهم فى ذلك ككرام سباع الطير والوحوش التى تأبى التناسلَ فى أقفاص الأسْر ، وتحاول الانتحار تخلصاً من قيود الذل — وغضبة الكواكبى على ابن خلدون سببها عصبيته لأهل البيت ، إذ كان من الأشراف ، وفيه نزعة لحبّ المجد ولو كان فيه فقد الحياة . فابن خَلدون يتحدث بالعقل ، والكواكبى يتحدث بالعاطفة .

[والمجد أنواع : « مجد الكرم » وهو بذل المال فى سبيل المصلحة العامة ، وهو أضعف أنواع المجد ، و « مجد العلم » وهو نشر العلم النافع برغم عوائق السّلطات. و « مجد النبالة » وهو بذل النفس بالتعرض للمشاقّ والأخطار فى سبيل نصرة الحق ، وهـذا أعلى المجد] ويقابل المجد التمجُّد ، أى المجد الكاذب ، وهو أن يكون الإنسان مستبدًّا صغيراً فى كَنَفِ المستبد الأعظم ، وهذا يزدهر فى الحكومات المستبدة ، لأن الحكومات الحرة تحافظ على التساوى بين الأفراد ، ولا تميّز بعض الأفراد إلا بخدمة عامة للأمة أو عمل عظيم يوفق إليه . أما فى الحكومات المستبدة فالمتمجدون أعداء للعدل ، أنصار للظلم ، ينتخبهم المستبدّ الأعظم ليقوّى بهم سلطانه ، ويختارهم من ضعاف النفوس ويستغويهم بالمناصب والمراتب ، وأكثر ما يعتمد على المُعْرقين فى التمجد ، الوارثين من آبائهم وأجدادهم مرض الاستبداد ؛ ومن هنا ظهرت فى الأمم نَغْمة التمجد بالأصالة والأنساب . والحكومة المستبدة يظهر استبدادها فى كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشُّرْطىّ ، إلى الفراش ، إلى كَنَّاس الشارع ، ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته ، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم التمجد باكتساب

ثقة رئيسهم المستبد. والوزير فى الحكومة الاستبدادية وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك مَن تحته من أعوانه ، فالهيئة كلها تتمجَّد ولا تَمْجُد ، وكلهم شركاء فى جريمة الضغط على الأمة وظلمها . والاستبداد يقتل المجد ويُحيي التمجد ! !

وهذا حق ، فالحكومة المستبدة تقتل فى النفوس العزة الحقيقية بالمفاخرة بالأعمال النافعة وتخلق نوعاً من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولى الأمر سلسلة تبدأ من المستبدّ الأعظم إلى الشرطىّ فى الشارع ، كلٌّ يخنَع لمن فوقه ويستبد بمن تحته ، وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ديمقراطية صحيحة ؛ فهى تُشعر كل شخص فى الدولة بالعزة التى يحميها العدل ، وبأن له نصيباً فى حكم بلاده ، وصوتاً مسموعاً فيما يجب أن يُعمل وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأى أمثاله ، إن شعروا يوماً بجَوْرها أسقطوها ؛ سلطة الرأى العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

* * *

ثم عَرَض للاستبداد والمال ، ويعنى بذلك الحكومة الاستبدادية وأثرها فى الثروة أو الحالة الاقتصادية فى البلاد . وهو فى هذا الموضوع يرى الخير فى نوع معتدل من الاشتراكية ، نعم لاينبغى أن يتساوى العالِمُ الذى أنفق زهرة حياته فى تحصيل العلم النافع ، أو الصانعُ الماهر فى صنعة مفيدة ، وذلك الجاهلُ الخاملُ النائم فى ظل الحائط ؛ ولكن العدالة تقضى أن يأخذ الراقى بيد السافل والغنىُّ بيد الفقير ، فيقرب به من منزلته ، ويقارب به فى معيشته ، وقد مال الإسلام إلى هذا النوع ففرض الزكاة (٢ر٥ ٪) من رءوس الأموال تعطى للفقراء وذوى الحاجة ؛ وحرّم الربا ، لأنه وإن أجازه الاقتصاديون لأسباب معقولة اقتصاديًّا (للقيام بالأعمال الكبيرة ، ولأن الأموال المتداولة فى السوق لا تكفى للتداول ، فكيف إذا

أمسك المكتنزون قسماً منها ؛ ولأن كثيراً من القادرين على العمل لا يجدون رءوس المال) فإن الدين ورجال الأخلاق ينظرون إليه من حيث ضرره الأخلاق، لأنه متى انتشر قسم الناس إلى عبيد وسادة ، وكان سبباً فى ضياع استقلال الأمم الضعيفة .

[والحكومة الاستبدادية سبب فى اختلال نظام الثروة ، فهى تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعون بحظ عظيم من مال الدولة ، مع أن عددهم لا يتجاوز الواحد فى المائة]، وهى تخصص المال الكثير لترف المستبد وسرفه ؛ وتُغدق على صنائعها[1]، ومن يُستخدم لتحصيل شهواتها ، ومن يعينها على طغيانها، وسائر أفراد الشعب فى شقاء وفقر و بؤس !

[ثم الحكومات المستبدة تيسر للسُّفْلة طرق الغنى بالسرقة والتعدِّى على الحقوق العامة ،] فيكفى أحدهم أن يتصل بباب أحد المستبدين و يتقرب من أعتابه ، و يتوسل إلى ذلك بالتملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسّس ، ليسهلَ له الحصول على الثروة الطائلة من دم الشعب .

— ٣ —

[عرض « الكواكبى » بعد ذلك لأثر الاستبداد فى فساد الأخلاق ، فالاستبداد يتصرف فى أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها. فهو يُفقد الإنسان عاطفة الحب ؛ فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحبّ وطنه لأنه يشقى فيه ، وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيداً فيها ، وهو لا يركن إلى صديقه لأنه قد يأتى عليه يوم يكون فيه عوناً على الاستبداد ومصدر شرّ له .

---

(١) الصنائع جمع صنيعة ، وهو من تربيه وتخرّجه وتختصه بعملك .

[الإنسان فى ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها .]

[والاستبداد يلعب بالأخلاق ، فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل: فيسمّى النصح فضولا ، والشهامة تجبراً ، والحميّة طيشاً ، والإنسانية حمقاً ، والرحمة مرضاً ، كما يسمى النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دَماثةً وظَرفاً .

[والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسمّوا الجبابرة الفاتحين عظماء أجلاء ، مع أنه لم يصدر عنهم إلا الإسراف فى القتل والتخريب] ثم أشادُوا بذكر السلف تملّقاً للخلَف .

[والاستبداد يفقد الثبات فى الخلق ، فقد يكون الرجل شجاعاً كريماً ، فيصبح بعوامل الاستبداد جباناً بخيلا . ولا أخلاق ما لم تكن ثابتة مطَّردة !]

وأقل ما يؤثر الاستبداد فى أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على فجورهم ، آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة ، لأن أكثر أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول الحق أمامهم خوف العقبى .

وأقوى ضابط للأخلاق النهى عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وما إلى ذلك ، وهو فى عهد الاستبداد غير مقدور لغير ذوى المتعة ، وقليل ما هم ، ويصبح الوعظ والإرشاد ملقاً ورياء .

فى الحكومات التى نجت من الاستبداد أُطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، ورُئِيَ أن الفوضى فى ذلك خير من تحديد الحرية ، لأنه متى وضعت القيود نفذ منها الحكام ، وتوسعوا فيها حتى خلقوا منها سلسلة من حديد يخنقون بها الحرية .

[والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويحل الخوف محل الثقة ، فيقلّ التعاون بين الأفراد ، والتعاون حياة الأمم .]

والأنبياء سلكوا فى تكوين الأخلاق مسلكا خاصًّا ، فبدءوا بفك العقول من تعظيم غير الله ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الإنسان ، ثم جهدوا فى تنوير العقول بمبادئ الحكمة وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته وحريته فى أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد. ثم أبانوا أنه مكلف بقانون الإنسانية ، واتباع المبادئ التى ترقيه وترقى جنسه — وكذلك فعل السياسيون الأقدمون من الحكماء .

أما الغربيون المحدثون فوضعوا الأخلاق غير مرتكزة على الدين ، ولكن على ما أودع فطرة الإنسان من ضمير وحب نظام ، وساعدهم على ذلك انتشار العلم عندهم والرغبة فى التقدم ، واستعانوا على ذلك بالوطنية .

* * *

[ثم عرض للاستبداد والتربية — والتربية تنمية الاستعداد جسما ونفساً وعقلا ، وهى قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقى لو صلحت .]

[والحكومات العادلة تُعْنَى بتربية الأمة من وقت تكوّن الجنين ، بل قبله ، بسن قوانين للزواج الصالح ، ثم بالعناية بالقابلات والأطباء ، ثم بفتح بيوت اللقطاء ، ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خُطَطها متدرجة إلى أعلى مرتبة ، ثم تسهيل الاجتماعات ، والإشراف على المسارح ، ثم تشجيع النوادى وإنشاء المكتبات ، وإعلاء شأن النوابغ بإقامة النُّصُب ونحوها ، ثم بتنمية المشاعر القوية بشتى أنواعها وتيسير الأعمال وغير ذلك .]

أما الحياةُ فى الحكومات المستبدة فمجرّد نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية

فى الغابات والحَرَجات [1] ، يسطو عليها الغَرَق والحَرَق ، وتحطمها العواصف ، والأيدى القواصف .

[فى الحكومة العادلة يعيش الإنسان حرّاً نشيطاً ، يسّره النجاح ولا تقبضه الخيبة ؛ وفى الحكومة المستبدة يعيش خاملا خامداً ، ضائع القصد حائراً .]

الأسير المعذّب يسلّى نفسه بالسعادة الأخروية ، و يبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ؛ وقد جنى على المسلمين علماؤهم فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، و إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ، ويتغافلون عن حديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » وحديث معناه : « إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غَرْسة فليغرسها » ! وكل هذه المثبطات تحوّل الأذهان من معرفة أسباب الشقاء إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر . وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التى تجعل الخضوع للحاكم المستبد ديناً .

[وعلى الجملة فالتربية الصحيحة لا تمكن فى ظل الاستبداد !]

* * *

ثم الاستبداد — على الإجمال — يمنع الترقى . والترقّى الحيوىّ الذى يسعى إليه الإنسان هو — أولا — الترقى فى الجسم صحة وتلذذاً ، ثم الترقى فى الاجتماع بالعائلة والعشيرة ، ثم الترقى فى القوة بالعلم والمال ، ثم الترقى فى الملكات باكتساب والمفاخر . وهناك نوع آخر هو الترقى الروحىّ ، وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يُترقى إليها على سلّم الرحمة والإحسان — والاستبداد بالأمة عدوّ ذلك كله ؛ بل هو يحوّل الميل الطبيعى فيها إلى طلب التسفّل ، حتى لو دُفعت إلى الرفعة لأبتْ وتألمت كما يتألم الأجْهَر من النور ! وعندئذ يكون الاستبداد

---

(١) الحرجات : جمع حرجة ، وهى مجتمع الشجر .

كالعلق يمتصّ دمَ الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ، ويموت هو بموتها ، والاستبداد يجعل الأمة منحطة فى الإحساس ، منحطة فى الإدراك ، منحطة فى الأخلاق . وهو يضغط عليها فتكون كدود تحت صخرة ؛ والمشفقون عليها يجب أن يسعَوا فى رفع الصخرة ولو حَتًّا بالأظافر ذَرَّة بعد ذرة ! !

وهنا ضرب مثلاً يصحّ أن يخطب به الخطباء فى الناس ليستيقظوا ؛ فوضع خطبة نموذجية لتنبيه المشاعر . ثم قال : إن الرقىّ الذى ينشده فى ظل العدل هو أن يكون الشخص أميناً على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التى لا تغفُلُ عن المحافظة عليه ، أميناً على ملذاته الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة بإيجاد أسبابها ، أميناً على حريته فلا يُعتدى عليها ، أميناً على نفوذه كأنه سلطان عزيز فلا يمانَع فى تنفيذ مقاصده النافعة ، أميناً على ماله وشرفه ، وما منحته الطبيعة من مزايا ؛ فما لم تتحقق هذه فالحكومة مستبدة ليست بيئة لترقى شعبها .

وأخيراً ما وسائل التخلص من الاستبداد ؟ يرى هو أن الاستبداد لا يقاوَم بالقوة ، إنما يقاوم باللين وبالتدريج ؛ ببثّ الشعور بالظلم ، وهذا يكون بالتعليم والتحميس ؛ ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات : كقوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ، فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصُد الناس ! وإنما الواجب المقاومة بالحكمة فى توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة . والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعُف أمام الوسائل الحكمَة فى قلبه ، كما قيل : كم من جبّار عنيد ، جَدَّلَه[1] مظلوم صغير ! !

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يحل محله ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة . ومتى وَضَحت الغاية المرسومة يجب السعىُ فى إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك فى كل الطبقات حتى

(١) جدله : صرعه .

يصبح عقيدة ، فيتلهفون جميعاً على نيل الحرية وتحقيق المثل الذى ينشدونه ؛ عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوْعاً أو كَرْهاً .

وقد حدّد فى ثنايا كتابه ، ماذا يقصد بالحكومة المستبدة ، فقال : إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق ، كما تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً إذا استبدّ ، بل قد يكون هذا الحكم أضر من استبداد الفرد . ويدخل فى أنواع الاستبداد أنواع الاستعمار، فالمستعمر تاجر لا يرى إلا مصلحته . ولا عبرة بأسماء أنواع الحكومات، إنما العبرة بحقيقتها ، وكل أمة فيها لون من ألوان الاستبداد ، ولكنها تختلف فيه كَمِّيّةً وكيفية ، فبعضها يمسه الاستبداد مَسًّا خفيفاً ، وبعضها تَغْرَقُ فيه من قدمها إلى مَفرِق رأسها [والغرب سبق إلى تقدير معنى الحرية والعدالة ، ولكنه لا يأخذ بيد الشرق ، بل يستغله لمصلحته . وواجب الغرب أن يرعى للشرق سابق فضله ، فيأخذ بيده ليخرجه إلى أرض الحياة ، ويعامله معاملة الأخ لأخيه ، لا السيد لعبده، ليتعاونا بعدُ على السير بالإنسانية .]

وبهذا ينتهى الكتاب . وهو فيه قوىّ مخلص ، مملوء غيرةً وأسفاً ، وتلهفاً على رفع نِيرِ الاستبداد عن الشرق ، وهو إن استمد الفكرة من الغرب ، فهو يبسطها ويعدّلها ويُعْنَى بتطبيقها . وقد يُؤخَذُ عليه حصرُ نفسه فى دائرة النظريات، وكان الكتاب يكون أوقعَ فى النفس لو ملأه بالشواهد وما رأى وسمع من أحداث وهو معروف بسعة الاطلاع ؛ فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعاً ، ولكن يظهر أن قد منعه من ذلك أنه أراد أن يستتر فأخفى اسمه ولم يضعه على الكتاب . وقال فى مقدمة الكتاب : إنه لم يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصوصة ، ولو أتى بالشواهد لدلّ على الحكومة التى يقصدها ، ودلّ بذلك على نفسه؛ وما كان فى ذلك من ضرر ، بل كان فيه كل النفع ؛ ولكن الأمور تقدّر بأوقاتها وظروفها ، وهو فيما اكتنفه من ظروف كان فى عرضه النظرياتِ فقط شجاعاً جريئاً .

السيد عبد الرحمن الكواكبي

obeikan.com

— ٤ —

أما كتابه الثانى « أمّ القُرى » فأدلّ على الابتكار وأوضحُ فى إظهار الشخصية ، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض ، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ويصف علاجه فى أسلوب قصصيّ جذاب . تحدّث فيه عن جمعية من المسلمين عُقدت فى مكّة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلاميّ ، فعضو شاميّ ، وعضو إسكندريّ ، ومصرى ومَقْدِسى ويمنى و بَصرى ونَجْدى ومدنى ومكى وتونُسى وفاسى و إنجليزى ورومى وكردى وتبريزى وتترى وقازانى وتركى وأفغانى وهندى وسندى وصينى ؛ وأُسندت رياسة الجمعية للعضو المكى ، والسكرتارية للسيد الفرُاتى — ويَعْنِى به الكواكبيُّ نفسَه — واجتمعوا كلهم قبيلَ الحج فى مكان متطرف فى مكة يتداولون فى حال المسلمين . وكان أول اجتماع لهم فى ١٥ ذى القَعدة سنة ١٣١٦ هـ .

فهل كانت هذه الجمعية حقيقيةً أو هى من نسج خياله ؟ يقول هو : إن لها أصلاً من الحقيقة ، وإن الخيال تممها ، فهل هذا صحيح ، أو هو من قبيل تأييد الخيال كما يفعل كثير من الروائيين ؟ أُرجِّح الرأىَ الثانى .

على كل حال انعقدت الجمعية — فيما يقول — ووضع الرئيس منهج البحث ، وهو الكتمان ، لأنه أدعى إلى إفضاء كلٍّ بما فى نفسه فى صراحة ، وتناسى الاختلاف فى المذاهب ، فلا سُنّى وشِيعى ، ولا شافعى وحنَفى ، فالكل مسلم . ثم التحرر من اليأس فى الإصلاح ، فهذه أمم كثيرة كالرومان واليونان واليابان ، استرجعت مجدها بعد تمام ضعفها ؛ خصوصاً وأن الظواهر كلها تدل على أن الزمان قد استدار ، وبدأت تظهرَ أعراضُ الصحةِ على المسلمين ، ومن أعظم الظواهر انعقاد مثل هـذه الجمعية . ووَضَع بَرنامجَ المؤتمر ، وهو يتلخص فى بحث موضع الداء فى المسلمين وأعراضه وجراثيمه ودوائه وكيفية استعماله إلخ .

قال الرئيس : إن أوضح عَرَض من أعراض مرض المسلمين فتورهم ، وهو فتور عام شامل لجميع المسلمين فى جميع أقطار الأرض ، لا يسلم منه إلا أفراد شُذَّاذ ، حتى لا يكاد يوجد إقليمان متجاوران ، أو ناحيتان فى إقليم ، أو قريتان فى ناحية ، أو بيتان فى قرية ، أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين ، إلا والمسلمون أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاما ، وأقل إتقانا من نظرائهم فى كل فنّ وصنعة — مع أن المسلمين فى جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم فى المزايا الخُلُقية ، مثل الأمانة والشجاعة والسخاء — حتى توهّم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ! فما هو السبب ؟

وقد لفت نظره العضو الهندىّ إلى أنه مع تسليمه بما قال الرئيس ، يود أن يستثنى بعض حالات فيها المسلمون خير من جيرانهم ، كبعض الوثنيين فى الهند ، والصابئة فى العراق ؛ فوافقه الرئيس وشكره على دقة ملاحظته .

ثم أخذوا — بعد التسليم بوجود العَرَض — يبحثون فى الأسباب . وذهبوا فى ذلك كل مذهب ؛ فالشامى رأى أن سبب الفتور يرجع إلى ما أصاب المسلمين من عقيدة جَبْرية ، فهذه العقيدة فى القضاء والقدر على هذا النحو آلت إلى الزهد فى الدنيا ، والقناعة باليسير والكَفَاف من الرزق ، و إماتة المطالب النفسية كحبّ المجد والرياسة ، والإقدام على عظائم الأمور ، فأصبح المسلم كميِّت قبل أن يموت . والعقيدة بهذا الشكل مثبِّطَة معطلة لا يرضاها عقل ، ولم يأت بها شَرْع .

والمقدِسى رأى أن السببَ تحوُّلُ نوع السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى استبدادية ، فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق .

وردّ التونسىّ بأن بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها ، و إنما السبب فى نظره الأمراء المترَفون الذين لم يرْعَوْا للأمة حقوقها .

وقال الرومى : إن تحميل الأمراء التبعة كلها غير سديد ، فما هم إلا نفر قليل من الأمة . والسبب الحقيقى فى نظره فِقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها : من حرية التعليم، وحرية الخطابة ، وحرية البحث العلمى ؛ فبفقد الحرية تفقد الآمال، وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس ، وتختلّ القوانين ، وتسأم الأمة حياتها فيستولى عليها الفتور .

ورأى التبريزى أن السبب ترك المسلمين أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فاسترسل الأمراء فى أهوائهم وشَهَواتهم ، وعدمت المراقبة عليهم .

وقال الفاسِىّ : إن السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدين ، حتى لم يبق له أثر إلا على أطراف الألسن ، وأمراؤهم مثلهم لا يَتَراءوْنَ بالدين إلا بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمة ، هذا إلى ظلمهم وجورهم . وقد كان المسلمون أعزّاء يوم توثّقت بينهم الرابطة الدينية ، فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا .

وأجاب المدنى بأن فَقْدَ الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً لهذا الفتور العام . وعنده أن السبب تدليسُ رجال الدين وغُلاة المتصوفين الذين لونوا الدين بلون سيىء فأضاعوه وأضاعوا أهله ؛ وذلك أن العلماء العاملين أهلٌ لكل تجلّة واحترام ، فلما حسدهم من لا يستحقّ هذه المنزلة سلكوا مسلكَ الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف المقدرة إلى التصوّف كما يلجأ فاقدُ الجد إلى الكبر وقليل المال إلى التظاهر بزينة اللباس والأثاث ، فأفسد هؤلاء الدين بما أدخلوا فيه ما ليس منه ، كالعلم اللَّدُنِىّ (١) ، وترتيب المقامات ، ووِراثة السرّ ، والرهبنة ، والتظاهر بالعفة ، والتبرك بالآثار ، والكرامة على الله ، والتصرف فى القدر . فسحَروا عقول الجهلاء ، واختلَبوا قلوب الضعفاء كالنساء ، والنساء يَبْذُرْنَ هذه

(١) اللدنى : أى الذى يكون من لدن الله ، يلقى فى النفس دون تعلم أو تلقين .

البذور الضارة فى أبنائهن وبناتهن ، فماتت النفوس وخَرِفت العقول . وهؤلاء المدلسون وُجدوا فى بغدادَ ومصرَ والشام وغمروا السُّوق فى الآستانة ، وسرى من هذه العواصم إلى جميع الآفاق فأصبح المرض عامًّا .

وانضم الرومى إلى هـذا الرأى وزاده إيضـاحا ، فقال : إن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين والجهال المتعممين ؛ وبلغ أمرهم فى البلاد العثمانية أن صارت الألقاب العلمية منحة رسمية تُعطى للجهال ، حتى للأميين والأطفال (كمشيخة الطرق عندنا) . فقد يكون طفلا ويُمنح بالوراثة لقبَ « أعلم العلماء المحققين » ، ثم « أفضـل الفضلاء المدققين » ، ثم وثم حتى يوصف بأنه « أعلم العلماء المتبحّرين ، وأفضل الفضلاء المتورّعين ، وينبوع الفضل واليقين » وأكثرهم لا يحسنون حتى قراءة ألقابهم . وطبيعى أن هؤلاء يقابلون السلطان بالمثل ، فهو صاحبُ العظمة والإجلال ، المنزَّه عن النظير والمثال ، مَهْبِط الإلهامات ، مصدر الكرامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين . وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخِدَم الدينية سِلعاً تباع وتشرى ، وتوهب وتورث . وتسلط هؤلاء المتعممون على المجالس والإدارات ، واتخذ الأمراء من ذلك وسيلة يعتذرون بها عند الدول الأجنبية بأن الرأى العام — وعلى رأسه المعمَّمون — لا يقبلون الإصلاح المدنىّ .

أجاب الكردى بأن هذا الداء خاص ببعض الولايات : ولكن عَرَض الفتور عام فى الولايات الإسـلامية التى فيها هذا الشأن وغيره ، فلا بد أن يكون السبب شيئاً أعمَ من ذلك . وعندى أن السبب هو أن المسلمين أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينية وإهمالهم العلوم الدنيوية ، كالرياضة والطبيعة والكيمياء ، على حين أن هذه العلوم نمت فى الغرب وترقّت وظهر لها ثمرات عظيمة فى جميع الشئون المادية والأدبية ، حتى صارت عندهم كالشمس لا حياةَ لهم إلا بنورها ؛ وأصبح

المسلمون فى أشدّ الحاجة إليها فى جميع أمورهم : من تربية الطفل إلى سياسة الدولة ، ومن عمل الإبرة إلى عمل المدافع والبوارج ، ومن استخدام اليد إلى استخدام الأسلاك والبخار — فابتعاد المسلمين إلى الآن عن هذه العلوم النافعة الحيويّة ، جعلهم أحطّ من غيرهم من الأمم ، وكلما تمادت الأيام بعدت النسبة بينهم و بين جيرانهم .

أجاب الإسكندرى : إن هذا يصلح سبباً ، ولكن ليس كل السبب ؛ لأن فقد العلوم لا يصلح سبباً لفقد الإحساس الشريف والأخلاق العالية . و إنما السبب نومنا و يأسنا .

قال التّترىّ : إن هذا شكاية حال لا شرح أسباب . إنما السبب عندى فقدان القادة والزعماء ، فلا أمير حازم يسوق الأمة طوعاً أو كرهاً إلى الرشاد ، ولا زعيم مخلص تنقاد له الأمراء والناس ، ولا رأى عام يجمع الناس على غرض نبيل .

والأفغانى يرى أن سبب الفتور الفقر ، وهو قائد كل شرّ ، ورائد كل فساد ، فنه الجهل ، ومنه الانحطاط الخُلُق ، ومنه تَشَتُّتُ الآراء حتى فى الدين ؛ فليس ينقصنا عن الأمم الحية إلا القوة المالية . ولكن المال لا يأتى إلا بالعلوم والفنون العالية ، وهذه لا تنتشر فى الأمة إلا بالمال . و بهذا تحدث مشكلة الدَّوْر ، ويجب أن نبحث عن حلّها .

أجاب المسلم الإنجليزى: إن الفقر فى المملكة الإسلامية ليس طبيعيّاً، فهى بلاد غنية ، لو نفّذت تعاليم الإسلام فيها من تحصيل الزكاة والكفّارات وما إلى ذلك وصُرفت فى وجوهها لخفّت وطأة الفقر. و إنما سبب الفتور فى نظره فقد الاجتماعات والمفاوضات وتبادل الآراء ، فنسى المسلمون حكمة تشريع الجمعة والجماعة والحجّ ، وصارت الخطب التى تلقَى تافهة لا قيمة لها ، وكان الغرض منها التحدث

فى الأحوال الطارئة . وبلغ من سوء رأيهم أنهم عدُّوا التحدث فى الأمور العامة فضولا ، والكلام فيها فى المساجد لَغْواً ، فلما انعدم الكلام فى المصالح العامة أصبح كل شخص لا يهتم إلا بنفسه ، ولا اهتمام له بالصالح العام ولا بغير ذلك من الشئون ؛ حتى لو بلغهم خبر تخريب الكعبة — لا قدَّر الله — ما زادوا على أن يقطِّبوا جبينهم لحظةً وينتهى الأمر . والأمم الحية فى الوقت الحاضر تهيىء الفرص للاجتماعات ومبادلة الآراء ما أمكن ، بكثرة النوادى والمجتمعات ،وتنظيم الرحلات والسياحات ، وكثرة الخطب والمحاضرات حتى فى المتنزَّهات ، وعقد المؤتمرات للمناسبات ، وتذكيرهم بتاريخهم وأهم أحداثهم ، وَبثّهم فى الأغانى والأناشيد ما يبعث على حبّ البلاد والحرية ويحمّس للخير العام .

ورأى الصينى أن السبب هو تكبر الأمراء وميلهم للعلماء المتملّقين المنافقين ، الذين يتصاغرون لديهم ، ويتذللون لهم ، ويحرّفون أحكامَ الدين ليوفّقوها على أهوائهم ، فماذا يُرجىَ من علماء دين يَشترون بدينهم دنياهم ، ويقبّلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم ، ويحقرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على ألوف من الضعفاء ؛ فأفضل الجهاد عند الله الحطّ من قدر العلماء المنافقين عند العامة ، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين . وعندنا فى الصين رجال حكماء نبلاء ، لهم نوع من السيادة حتى على العلماء ، وهؤلاء هم الذين يسمَّون فى الإسلام أهل الحَل والعقد ، وهم خواصّ الطبقة العليا فى الأمة الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم . وتاريخ المسلمين يدل على ارتباط القوة والضعف بمنزلة أهل الحل والعقد فى الأمة . والخلاصة أن سبب الفتور استحكام الاستبداد فى الأمراء ، وانعدام أهل الحل والعقد من الأمة .

وقال النجدى : إن سبب فتور المسلمين الدين الحاضر نفسه ، بطريق التلازم . فالدين الحاضر ليس دين السَّلف ؛ إن الدين الحاضر تَرَكَ إعداد القوة

بالعلم والمال والجاهد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود ، وإيتاء الزكاة ، إلى غير ذلك مما بيّنه إخواننا . قد يقول قائل : إن كل دين دخل عليه التغيير ولم يؤثر فى أهله الفتور ، بل قال كثير من رجال الغرب إنهم ما أخذوا فى الترقى إلا بعد فصلهم الدين عن شئون الحياة الدنيا . والجواب أن كل أمة لا بدّ لها من نظام ثابت تسير عليه ، ويلائم نفسها و بيئتها وعلاقاتها التجارية والسياسية ؛ والقانون الطبيعى الذى يتفق والطبيعةَ البشرية هو إذعان الإنسان لقوة غالبة هى الله الذى يوحى به الإلهام الفطرى . ولهذه الفطرة علاقة عظمى بتنظيم شئون حياته ، وهى أقوى وأفضل وازع — وكل الأديان راجعة إلى أصل صحيح واحد ، فإذا تغير أو فسد فسد الناس لاختلال هذا الوازع ، قال تعالى : « ومنْ أعْرَضَ عن ذِكْرى فإنّ له مَعِيشةً ضَنْكاً » . « والأمة كلما قربت من الأصل الصحيح والمبادئ الصحيحة قربت من الكمال » .

وهنا أعلن الرئيس أن البحث فى أعراض الداء وأسبابه قد نَضِجَ أو كاد ، فيُكتفى فيه بهذا القدر ، ويجب نقل البحث إلى موضوع آخر . قال : وكلمة أخينا النجدىّ تلهمنا الموضوعَ الآتى الذى نبحثه ، وهو : ما هو الإسلام الصحيح ؟

— ٥ —

بعد هذا انتقل بحث المؤتمر إلى تحديد « الإسلام الصحيح » وما دخل عليه من تغيير . وقد أفاض فى ذلك العُضو النجدى ، فقال : « إن الإيمان بالله أمر فطرى فى البشر ، وحاجتهم إلى الرسل لإرشادهم إلى كيفية الإيمان ؛ ويختلف الناس فى تصور الله ؛ والعقول البشرية مهما قَوِيت واتسعت لا تتحمل إدراك صفات الله الأزلية المجردة عن المادة والزمان والمكان ، فاحتاجت إلى من يرشدها » .

وأساس الإسلام جملتان : « لا إله إلا الله » و « محمد رسول الله » ؛ وثمرة الإيمان بالأولى عتق العقول من الأسر ، وثمرة الثانية الاهتداء بمحمد فى تعاليمه التى تحول بين المرء ونزُوعِه إلى الشرك .

ولكن إدراك التوحيد والاحتفاظ به عسير على النفس ، فسرعان ما يخرج منه إلى الشرك . والشِّرْك أنواع ثلاثة : « شرك فى الذات » وذلك فى عقيدة الحلول ، و « شرك فى الملك » كاعتقاد الناس فى بعض المخلوقات المشاركة فى تدبير شئون الكون ، و « شرك فى الصفات » بإسباغ صفات الكمال على بعض المخلوقات .

وقد فشا فى المسلمين هذا الشرك ، كتعظيم القبور ، وبناء المساجد والمشاهد عليها ، والطواف بها والإسراج لها[1] والتذلل ، وكدعوى أن هناك علماً يسمَّى علم الباطن خصّ به بعض الناس ، واتخاذ الدين لهواً ولعباً بالتغنى والرقص ، ولبس الأخضر والأحمر ، واستخدام الجِنّ والشياطين ، فكل هذه وأمثالها شرك محض أو مظِنَّة إشراك .

وعَرَض للإسلام — غير الشرك — أمران خطيران : وهما التشدّد فى الدين بعد ما كان يُسراً سهلاً ، فكانت كل فرقة تأتى تزيد فى هذا التشدد حتى صار عُسْراً صعباً ؛ والأمر الثانى تشويش الدين بكثرة المذاهب والشِّيَع وطرق التصوف .

وقد لاحظ الرئيس أن عضوين من الأعضاء لم يتحدثا ، فرغب أن يسمع صوتهما ، وهما العضو السِّنْدى والعضو القازانى ؛ فأما السِّندى فقد تكلم فى التصوف والذى دعا إليه ، وما فيه من حق وما فيه من باطل ؛ وأما القازاني فقصّ عليهم قصة جرت بين مسيحى روسى أسلم ومفتى قازان ، تدور حول دعوة المفتى إلى

(١) الإسراج : إيقاد السراج ، وهو المصباح .

تقليد السلف والاقتصار على ما قالوا ، ودعوة الروسىّ المسلم إلى ضرورة الاجتهاد وعدم التقليد ؛ وحكى ما جرى بينهما من حجج وأدلة ، وأخيراً انتصر المسلم الروسى المستشرق على المفتى ، فاقتنع بأن التقليد ضارّ حمل عليه الكسل ، وأن الاجتهاد واجب ولكن يحتاج القيام به إلى جدّ وعناء .

ثم دعا الرئيس السيد الفراتى السكرتير ، وهو « الكواكبى » لتلخيص المحاضر السابقة للمؤتمر وتَعداد أسباب فتور المسلمين ، وكلفه أن يزيد عليها من الأسباب ما يراه إن وجد غير ما ذكره الأعضاء ؛ فلخص أسباب فتور المسلمين فى :

(١) أسباب دينية : أهمها عقيدة الجَبْر ، ونشر ما يدعو إلى التزهيد فى الدنيا ، وترك السَّعى والعمل ، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً ، وإضاعة سماحة الدين وتشديد الفقهاء المتأخرين ، وإدخالهم فى تعاليمه الخرافات والأوهام ، وعدم المطابقة بين القول والعمل فى الدين ، وتهوين غُلاة الصوفية شأن الدين وجعله لهواً ولعباً ، والتوسّع فى تأويل النصوص ، والتحايل على التحرر من الواجبات ، وإيهام الدجالين الناسَ أن فى الدين أموراً سِرِّية ، واعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين ، وتطرق الشرك إلى عقيدة التوحيد ، وتهاون العلماء فى تأييدها ، والغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة والحج .

(٢) وأسباب سياسية : أهمها السياسة الخالية من المسئولية ، وحرمان الأمة حريةَ القول والعمل ، وفقدانها الأمن والأمل ، وفَقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة ، وميل الأمراء للعلماء المدلّسين ، واعتبار العلم صدقة يُحسِن بها الأمراء على الخاصة ، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم للمتملقين .

(٣) وأسباب خُلقية : من الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه ، واستيلاء اليأس على النفوس ، والإخلاد[1] إلى الخمول ، وفساد التعليم ، وفساد النظام المالى ،

(١) الإخلاد : الركون .

و إهمال طلب الحقوق العامة جبناً ، وتفضيل الوظائف على الصنائع ، والتباعد عن المداولات فى الشئون العامة .

وقد زاد السكرتير أشياء على ما سبق ، أهمها : الغفلة عن تنظيم شئون الحياة ، وعدم توزيع الأعمال توزيعاً عادلا ، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن ، وسقوط الهمّة وانتشار داء التواكل .

ولم يرض المؤتمر بالاكتفاء بالبحث فى الأمراض وعلاجها ، بل اقترح إنشاء جمعية دائمة تُعْنىَ بإصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ بَرنامَجها فى الإصلاح ، وهذه الجمعية تؤلف من مِائَةِ عضو : عشرة عاملين ، وعشرة مستشارين ، وثمانين مخبرين ، ولا عدد للأعضاء المساعدين المحتَسِبين ؛ واشترَط فى الأعضاء العاملين شروطاً دقيقة : من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التأثير وإمكان التفرغ للعمل لأغراض المؤتمر ؛ وجعل مركزها فى مكة ، ولها شُعب فى الآستانة ومصر وعدن والشام وطهران وتفليس وكابل وكلكُتّا وسنغافورة وتونُس ومَرّاكُش وغيرها . والجمعية لا تكون تابعة لحكومة ما ، ولا تتقيد بمذهب دينى خاص ، ويكون شعارها : « لا نعبد إلا الله » ، ويكون من أهم أغراضها تعميم التعليم بين المسلمين ، والترغيب فى العلوم والفنون النافعة ، وإيجاد المدارس العالية يتخصص كل منها للتوسع فى فرع من فروع العلم ، وتوحيد أصول التعليم ، ووضع مناهج للرقى بالأخلاق وتنفيذها ، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لتأييد أغراضها إلخ إلخ .

وقد اتفقوا على أن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر ، لتقدمها فى العلم والحرية ، ولأنها أسبق الأمم الإسلامية فى ذلك .

وانفضّ المؤتمر بعد أن اجتمع اثنى عشر اجتماعاً وصل فيها إلى النتائج الآتية :

١ — المسلمون فى حالة فتور عامّ .

٢ — يجب تدارك هذا الفتور .

٣ — جرثومة الداء الجهل .

٤ — الدواء تنوير الأفكار بالتعليم ، وإيقاظ الشوق للترقى ، وخصوصاً فى الناشئة .

٥ — تأسيس الجمعيات التى تقوم بهذا العلاج .

٦ — المكلَّفون بذلك كل قادر على عمل ، وخاصةً نُجباء الأمة من السَّراة والعلماء .]

***

هذه نظرة الطائر إلى هذه الرواية العظيمة العميقة المفيدة ، وهذا تفكير « الكواكبى » من نحو نصف قرن يشفّ عن سعة اطلاع ، وصدق إخلاص ، وسموّ فكر وبعد نظر ، وشجاعة وصراحة ؛ فإذا نحن اطلعنا على ما كان يُكتب قبله فى المجلات والصحف فى مثل هذه الموضوعات رأيناها كانت أقرب إلى موضوعات إنشائية جوفاء ، فنقلها هو إلى بحوث علمية عملية ، يحلل ويذكر العرَض وسبب الداء وعلاجه فى صبر وأناة واستقصاء .

كتاب « أم القرى » رواية جدّية ليس فيها غرام وغزل ، بل فيها غرام مؤلفه بالعالم الإسلامي يعانى فى سبيله ما يعانى المحب الهائم ، ويود من صميم قلبه أن يصل محبوبه إلى أعلى درجات الكمال ، ويضحى من أجله بماله الذى ضيعه عليه الظَّلَمة لتمسكه بالحق ، ويضحى بوطنه فيهجره لأنه لم يستطع أن يجهرَ برأيه فى حلب فجهر به فى مصر ، ولا بأس فكل بلد إسلامىّ وطنه — كان يحب التخصص ، وينادى بأن كل قادر يحصُر نفسه فى فرع من فروع العلم أو الفن حتى يتقنه ، وطبق ذلك على نفسه ، فلم يتوزع بين فقه ولغة ، وما إلى ذلك ، إنما وهب نفسه

لإصلاح المسلمين ، فدرس التاريخ الإسلامي فى دقة وإمعان يتعرّف فيه الأسباب النتائج ، كما تدل عليه كتابته ، وساح فى البلاد الإسلامية سياحة فاحصة منقبة ، ودرس كل قطر إسلامى ومزاياه وعيوبه ، حتى إنه لما وضع روايته « أم القرى » أنطق كل عضو بعقلية قطره : النجدى يشكو من ضياع الدين ، والرومى يشكو من ضياع الحرية وسلطة المتعممين ، والإسكندرى يشكو ضعف الأخلاق ، والإنجليزى يَنْعَى على المسلمين عدم المجتمعات وتبادل الرأى بالخطب والمحاضرات ونحو ذلك .

اكتوى السيد جمال الدين الأفغاني من السياسة الأوربية ولعبها بالمسلمين ، فصبّ عليها جَامَ غضبه ، واستغرقت حملته على السياسة الإنجليزية أكبر قسم فى العُرْوَة الوُثقى ، واكتوى الكواكبىّ بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده . نظر الأفغانى إلى العوامل الخارجية للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها ، ونظر الكواكبى إلى نفس المسلمين فدعاهم إلى إصلاحها ، فإنها إن صلَحَتْ لم تستطع السياسة الخارجية أن تلعب بهم . ولذلك كانت معالجة الأفغاني للمسائل معالجة تأثر ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ؛ ومعالجة « الكواكبى » معالجة طبيب يفحص المرض فى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة . الأفغانى غاضب ، والكواكبى مشفق ؛ الأفغانى داع إلى السيف ، والكواكبى داع إلى المدرسة . ولعل هذا يرجع أيضاً إلى اختلاف المِزاج ، فالأفغانى حادّ الذكاء حاد الطبع ، والكواكبى رزين الذكاء هادئ الطبع ، إذا وُضعت أمامهما عقبة تخطاها « الأفغانى » قبل وتخطاها « الكواكبى » بعد ولكن من خير نقطة تُتخطّى ؛ فلا عجبَ أن كان للأفغانى دَوِىّ المدافع ، وكان للكواكبى خرير الماء يعمل فى بطء حتى يفتّت الصخرا .

لو مُكن له معرفة لغة أجنبية ، ووقف على ما وصلت إليه بحوث

علم الاجتماع الحديث لكان له منبع فياض إلى جانب غزارة فكره .

و بينما الناس يُعجَبون بما ينشره من مقالات إصلاحية فى المجلات والجرائد ، ومجالس الفضلاء فى مصر عامرة بحديثه وجدله ودفاعه المؤدب عن آرائه ، إذا بالصحف المصرية تطلع بنبأ موته الفجائى يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ ، فأسف عليه كل من كان محبًّا لإصلاح المسلمين ، و بكاه إخوانه الذين كانوا يرون فيه رجلا نبيل الخلق ، سامى المقصد ، عف اللسان ، نقى الضمير .

فرحمه الله !